الفَصلُ السَّابعُ عَشَـر

من فصول هذا الباب

في ذكر الباطنية وبيان خروجهم عن جميع فِرَقِ الإسلام

أعلموا - أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرقِ المسلمين أعْظَمُ من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مَضَرَّة الدهرية وسائر أصناف الكَفَرةِ عليهم، بل أعظم من ضرر الدجّال الذي يظهر في آخر الزمان؛ لأن الذين ضَلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكْثَرُ من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يومًا، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقَطْرِ. وقد حكى أصحاب المقالات أن الذين أسَّسُوا دعوة الباطنية جماعة: منهم «ميمون ابن دَيْصان» المعروف بالقَدَّاح[1] وكان مولًى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز، ومنهم: محمد بن الحسين الملقب بدندان، اجتمعوا كلُّهم مع مَيْمُون بن دَيْصَان في سجن والى العراق، فأسَّسُوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خَلَاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان، وابتدأ بالدَّعْوة في ناحية توز، فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رَحَل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب، وانتسب في تلك الناحية إلى عَقِيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غُلَاة الرَّفْض والحُلُولية منهم ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهلٍ منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يُعْقِبْ عند علماء الأنساب[2]. ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجل يقال له حَمْدَان قِرْمِط[3]،

(1) ميمون بن داود بن سعيد، القداح: (100؟ - نحو 170 هـ - 718 - نحو 786م) في نسبه وسيرته اضطراب، قيل: اسم أبيه ديصان، أو غيلان. وفي الإسماعيلية الباطنية من ينسبه إلى سلمان الفارسي. ولد بمكة وانتقل إلى الأهواز، واتصل بمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق، وروى عنهما. ويقال: إنه أدرك محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأدبه ولقنه مذهب الباطنية وتوجه به إلى طبرستان، ففلسطين. واستقرّ في سلمية بسورية، حيث ألف كتابيه «الميزان» و «الهداية» وتوفى بها. وهو الذي قيل إن الخلفاء الفاطميين في المغرب من نسله. ولم يصح هذا. انظر أصول الإسماعيلية 133 - 156، وأعلام الإسماعيلية 559.

(2) هذه المسألة موضع خلاف بين علماء الأنساب وليست محسومة كما يوحي كلام البغدادي.

(3) قِرْمِط: (000 - 293هـ = 000 - 906م) أختلف في اسمه وأصله. قيل: اسمه «حمدان» أو «الفرج ابن عثمان» أو «الفرج بن يحيى» وقرمط لقبه. والنسابون يضبطونه بكسر القاف والميم بينهما راء ساكنة، واللغويون يفتحون القاف والميم. أصله من خورستان، وعرف في سواد الكوفة (سنة 258هـ) ابن خلدون 4: 11، 84 - 87. وابن الأثير 7 : 147 - 149، 168، 180 والنجوم الزاهرة 3: 128.

obeikandl.com

لقب بذلك لقَرْمَطَة في خطه أوْ في خَطْوه، وكان في ابتداء أمره أكّارًا من أكَرَة سواد الكوفة، وإليه تنسب القَرامطة.

ثم ظهر بعده في الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجَنّابي[1]، وكان من مستجيبة حَمْدان، وتغلَّب على ناحية البحرين، ودخل في دعوته بنو سنير.

ثم لما تمادت الأيّامُ بهم ظهر المعروفُ منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن مَيْمُون بن دَيْصَان القَدّاح، فغير اسم نفسه ونسبه، وقال لأتباعه: «أنا عبيد الله ابن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق»، ثم ظهرت فتنته بالمغرب، وأولادُه اليوم مستولونُ على أعمال مصر[2].

وظهر منهم المعروف بابن زكرويه بن مهرويه الدنداني، وكان من تلامذة حمدان قرمط، وظهر مأمون أخو حمدان قِرْمِط بأرض فارس، وقرامطةُ فارس يقال لهم «**المأمونية**» لأجل ذلك.

ودخل أرض الدَّيْلَم رجل من الباطنية يعرف بأبي حاتم، فاستجاب له جماعة من الديلم منهم أسفار بن شرويه.

وظهر بنيسابور داعية لهم يعرف بالشعْراني، فقتل بها في ولاية أبي بكر بن حجاج عليها، وكان الشعراني قد دَعَا الحسين بن علي المروزي، وقام بدعوته بعده محمد ابن أحمد النسفي داعية أهل ما رواء النهر، وأبو يعقوب السجزى العروف ببندانه، وصَنَّف النسفي لهم كتاب «المحصول»، وصنف لهم أبو يعقوب كتاب «أساس الدعوة»، وكتاب «تأويل الشرائع»، وكتاب «كَشْف الأسرار» وقتل النسفي والمعروف ببندانه على ضلالتهما[3].

وذكر أصحابُ التواريخ أن دعوة الباطنية ظهرت أولًا في زمان المأمون، وانتشرت في زمان المعتصم، وذكروا أنه دخل في دعوتهم الأفشِينُ صاحبُ جيش المعتصم، وكان مراهنًا لبابك الخرّمي، وكان الخرّمي مستعصيًا بناحية البدين، وكان أهل جَبَله خرمية على طريقة المزدكية، فصارت الخرمية مع الباطنية يدًا واحدة، واجتمع مع بَابَك من أهل البدين وممن انضم إليهم من الديلم مقدار ثلاثمائة ألف رجل، وأخرج الخليفة لقتالهم الأفْشينَ فظنَّه ناصحًا للمسلمين، وكان في سره مع بابك، وتوانى في القتال معه، ودلَّه على عَوْرَات عساكر المسلمين، وقتل الكثير منهم، ثم لحقت الأمْدَادُ بالأفشين، ولحق به محمد بن يوسف الثَّغْري، وأبو دُلَف القاسمُ بن عيسى العِجْلى، ولحق به بعد ذلك قُوَّادُ عبد الله بن طاهر، واشتدت شوكة البابكية والقرامطة على عسكر المسلمين، حتى بَنَوْا لأنفسهم البلدة المعروفة ببرزند خوفا من بلاد البابكية ودامت الحرب بين الفريقين سنين كثيرة إلى

(1) الحسن بن بهرم الجنابي، أبو سعيد: (000 - 301 هـ - 000 - 914م) كان دقاقًا، من أهل جناية (بفارس) ونفي منها، فأقام في البحرين تاجرًا. وجعل يدعو العرب إلى مذهبه، فعظم أمره. فحاربه الخليفة، فظفر الحسن. وصافاه المقتدر العباسي واستولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين. كان شجاعًا داهية. قتله خادم له صقلبي في الحمام، بهجر. ابن الأثير 8: 27 وما قبلها، ومرآة الجنان 2: 238.

(2) يقصد أيام دولة الفاطميين.

(3) لمعرفة المزيد من التفاصيل والتحليلات التاريخية حول نشأة الباطنية وتطورها يمكن الرجوع لكتابنا «حركة الحشاشين: تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي» سلسلة أسرار الباطنية والفرق الخفية، إصدار مكتبة القرآن بمصر.

obeikandl.com

أن أظفر الله المسلمين بالبابكية فأُسِرَ بَابَكٌ وصُلِب بُسُّرمن رأى سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ثم أخذ أخوه إسحاق، وصلب ببغداد مع مَازَيَار صاحب المحمرة بطبرستان وجرجان، ولما قتل بابك ظهر للخليفة غَدْر الأفشين وخيانته للمسلمين في حروبه مع باباك، فأمر بقتله وصلبه، فصلب لذلك.

وذكر أصحابُ التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يَجْسُروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين، فوضع الأغمار منهم أُسُسًا مَنْ قَبِلها منهم صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأولوا آيات القرآن وسُنَن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم.

وبيان ذلك أن الثَّنَوِيةَ زعم أن النور والظلمة صانعان قديمان، والنور منهما فاعل الخيرات والمنافع، والظلام فاعل الشرور والمَضَارِّ، وأن الأجسام ممتزجة من النور والظلمة، وكل واحد منهما مشتمل على أربع طبائع، وهي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. والأصلان الأولان مع الطبائع الأربع مُدَبِّراتُ هذا العالم، وشاركهم المجوسُ في اعتقاد صانعين، غير أنهم زعموا أن أحد الصانعين قديم وهو الإلهُ الفاعل للخيرات، والآخر شَيْطَان مُحْدَث فاعل للشرور.

وذكر زعماء الباطنية في كتبهم أن الإله خلق النفس؛ فالإله هو الأول، والنفس هو الثاني، وهما مدبرا هذا العالم، وسموهما الأول والثاني، وربما سموهما العقل والنفس، ثم قالوا: «إنهما يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأول»، وقولهم «إن الأول والثاني يدبران العالم» هو بعينه قول المجوس بإضافة الحوادث لصانعين أحدهما قديمٌ والآخر محدَث، إلا أن الباطنية عَبَّرَتْ عن الصانعين بالأول والثاني، وعبر المجوس عنهما بِيَزْدَان وأَهْرَمَن. فهذا هو الذي يدور في قلوب الباطنية، ووَضَعُوا أساسًا يؤدِّي إليه.

ولم يمكنهم إظهار عبادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: «ينبغي أن تجمَّرَ المساجدُ كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرة يوضع عليها النِّدُّ والعُودُ في كل حال»، وكانت البَرَامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جَوْف الكعبة مجمرة يتبخَّر عليها العود أبدًا، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير الكعبةُ بيت نار، فكان ذلك أحَدَ أسباب قَبْض الرشيد على البرامكة.

ثم إن الباطنية لما تأولَتْ أصولَ الدين على الشرك احتالت أيضًا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدِّي إلى رَفْع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس، والذي يدلُّ على أن هذا مرادُهُم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحُوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات، وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات.

ويؤكد ذلك أن الغُلَام الذي ظهر منهم بالبحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسن القِرْمِطِيّ سَنَّ لأتباعه اللواط، وأوجب قَتْلَ الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به، وأمر بقَطْع يد من أطفأ نارًا بيده، وبقطع لسان من أطفأها بنفخه، وهذا الغلام هو المعروف بابن أبي زكريا الطامي، وكان ظهورهُ في سنة تسعَ عشَرة وثلاثمائة، وطالت فتنته إلى أن سَلَّط الله تعالى عليه مَنْ ذَبَحه على فراشه.

ويؤكد ما قلناه من مَيْل الباطنية إلى دين المجوس أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو مَوَادٌّ لهم، منتظر لظهورهم على الديار، يظنون أن المُلْكَ يعود إليهم بذلك، وربما استدل أغمارهم

على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادشت أنه قال لكشتاسف: «إن المُلْك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ثم يعود إلى الفرس، ثم يزول عن الفرس إلى العَرَب، ثم يعود إلى الفرس»، وساعَدَهُ جاماسب المنجم على ذلك، وزعم أن المُلْكَ يعود إلى العجم لتمام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زادشت.

وكان في الباطنية رجل يعرف بأبي عبد الله العردي يَدّعى علم النجوم، ويتعصب للمجوس، وصَنّف كتابا وذكر فيه أن القرن الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر، وهو نَوْبَة المشترى والقَوْس، وقال: «عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية، ويستولي على الأرض كلها»، وزعم أنه يملك مدة سَبْع قرانات، وقالوا: «قد تحقق حكم زرادشت وجاماسب في زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية في أيام الإسكندر، ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة، ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب، وسيعود إلى العجم لتمام المدة التي ذكرها جاماسب، وقد وافق الوقت الذي ذكروه أيام المكتفي والمتقدر، وأخلف موعودهم، وما رجع المُلْكُ فيه إلى المجوس. وكان القرامطة قبل هذا الميقات يتواعَدُونَ فيما بينهم ظهور المنتظر في القران السابع في المثلثة النارية.

وخرج منهم سليمان بن الحسن[1] من الأحساء على هذه الدعوى، وتعرض للحجيج، وأسْرَفَ في القتل منهم، ثم دخل مكة، وقتل مَنْ كان في الطواف وأغار على أستار الكعبة، وطَرح القتلى في بئر زمزم، وكسر عَسَاكر كثيرة من عساكر المسلمين، وانهزم في بعض حروبه إلى هجر، فكتب للمسلمين قصيدة يقول فيها:

أغَــرَّكُــمُ مـنـى رجـوعـي إلــى هَـجَـرْ ... وعَـمَّـا قليل سَــوْف يـأتـيـكُـمُ الـخَـبَـرْ
إذا طَـلَـعَ الـمـرِّيـخُ فـي أرض بابل ... وقَــارَنَــهُ النجمان فـالـحَـذَرَ الـحَـذر
ألَـسْـتُ أنـا المذكور في الكُتْبِ كلها ... ألَـسْـتُ أنـا المبعوث في سُـورَةِ الزُّمَرْ
سأمْـلِـك أهْــلَ الأرض شَـرْقًـا ومَـغْـرِبـا ... إلـى قَـيْـرَوَانِ الـرُّوم وَالـتُّـرْك وَالْـحَـزَرْ

وأراد بالنجمين زُحَل والمشترى، وقد وجد هذا القران في سني ظهوره، ولم يملك من الأرض شيئًا غير بلدته التي خرج منها، وطَمِعَ في أن يملك سبع قرانات وما ملك سبع سنين، بل قتل بهيت، رمته امرأة من سَطْحها بلَبِنَة على رأسه فدمغته[2]، وقتيل النساء أخسُّ قتيل وأهْوَنُ فَقِيد.

---

(1) سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي الهجري، أبو طاهر القرمطي: (000 - 332هـ = 000 - 944م) ملك البحرين، وزعيم القرامطة. نسبته إلى جنابة من بلاد فارس. وكان أبوه الذي ترجمنا له سابقًا قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ومات أبوه سنة 301، وقد عهد بالأمر إلى كبير أبنائه «سعيد» فعجز هذا عن الأمر، فغلبه سلميان صاحب الترجمة، وهو الذي اقتلع الحجر الأسود يوم التروية 317هـ وأرسله إلى هجر ونهب أموال الحجيج وقتل ثلاثين ألفًا منهم، وعرّى البيت الحرام، وأخذ بابه، وردم زمزم بالقتلى. وعاد إلى هجر، فألهه بعض أصحابه. ومات كهلًا بالجدري. هذا ولم يعد الحجر الأسود إلى الكعبة إلا سنة 339هـ انظر الكامل 8: 27، 45، 49، 53، 56، 65. والنجوم الزاهرة 3: 225. وفوات الوفيات 1: 175.

(2) تذكر المصادر التي بين أيدينا - كما ذكرنا في الهامش السابق - أنه مات كهلًا نتيجة إصابته بالجدري.

obeikandi.com

وفي آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر تَمَّ من تاريخ زَرَادَشْتَ ألفٌ وخمسمائة سنة، وما عاد فيها ملك الأرض إلى المجوس، بل اتَّسَع بعدها نطاقُ الإسلام في الأرض، وفتح الله تعالى للمسلمين بعدها بلاد بلا ساغون، وأرض التبت، وأكثر نواحى الصين، ثم فتح لهم بعدها جميعَ أرض الهند من لمفات إلى قنوج، وصارت أرض الهند إلى سيتر سيقا بحرها من رقعة الإسلام في أيام يمين الدولة أمين الملة محمود بن سبكتكين رحمه الله، وفي هذا رَغمُ أنوفِ الباطنية والمجوس الجاماسبية الذين حكموا بعَوْد الملك إليهم، فذاقوا وَبالَ أمرهم، وكان عاقبة أمانيهم بُورًا بحمد الله ومَنِّه.

ثم إن الباطنية خرج منهم عُبَيْدُ الله بن الحسين بناحية القَيْرَوَان، وخَدع قوما من كتامة وقوما من المَصَامِدة، وشرذمة من أغتام بربر بحيَلٍ ونيرنجات أظهرها لهم كرؤية الخيالات بالليل من خلف الرداء والإزار، وظن الأغمار أنها معجزة له فتبعوه لأجلها على بدعته، فاستولى بهم على بلاد المغرب، ثم خرج المعروفُ منهم بأبي سعيد الحسن بن بَهْرام على أهل الأحساء والقطيف والبحرين فأتى بأتباعه على أعدائه، وسبى نساءهم وذراريهم، وأحرق المصاحف والمساجد، ثم استولى على هَجَر، وقتل رجالها، واستعبد ذراريهم ونساءهم، ثم ظهر المعروفُ منهم بالصناديقىّ باليمن وقتل الكثير من أهلها، حتى قتل الأطفال والنساء، وانضمَّ إليه المعروف منهم بابن الفضل في أتباعه، ثم إن الله تعالى سَلَّط عليهما وعلى أتباعهما الأكَلَة والطاعون فماتوا بهما.

ثم خرج بالشام حفيدٌ لميمون بن دَيْصَان يقال له أبو القاسم بن مهرويه، وقال لمن تبعهما: «هذا وقت مُلْكنا»، وكان ذلك سنة تسع وثمانين ومائتين. فقصدهم سبك صاحب المعتضد، فقتلوا سبكا في الحرب، ودخلوا مدينة الرصافة، وأحرقوا مسجدها الجامع، وقصدوا بعد ذلك دمشق فاستقبلهم الحماميُّ غلامُ ابن طيلون وهزمهم إلى الرقة، فخرج إليهم محمد بن سليمان كاتب المكتفي في جند من أجناد المكتفي، فهزمهم وقتل منهم الألوف، فانهزم الحسن بن زكريا بن مهرويه إلى الرملة، فقبض عليه والي الرملة، فبعث به وبجماعة من أتباعه إلى المكتفي، فقتلهم ببغداد في الشارع بأشد عذاب ثم انقطعت بقتلهم شوكة القرامطة إلى سنة عشر وثلاثمائة.

وظهر بعدها فتنة سليمان بن الحسن في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، فإنه كبس البصرة وقتَلَ أميرها سبْكا المفلحي، ونقل أموال البصرة إلى البحرين.

وفي سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وقَعَ الحجيجُ في نَهْبٍ لعشر بقين من المحرم، وقتل أكثر الحجيج، وسبي الحرم والذراري، ثم دخل الكوفة في سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة فقتل الناس وانتهب الأموال.

وفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة حارب ابن أبي الساج، وأسَره، وهزم أصحابه.

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل مكة وقتل مَنْ وجده في الطواف، وقيل: إنه قَتَلَ بها ثلاثة آلاف، وأخرج منها سبعمائة بكر، واقتلع الحجر، وحمله إلى البحرين، ثم رُدَّ منها إلى الكوفة، ورُدَّ بعد ذلك من الكوفة إلى مكة على يد أبي إسحاق إبراهيم ابن محمد بن يحيى المزكي النيسابوري في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.

وقصد سليمان بن الحسن بغداد في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة، فلما ورد هيت رَمَتْه امرأة من سطحها بِلَبِنة فقتلته، وانقطعت بعد ذلك شوكة القرامطة، وصاروا بعد قتل سليمان بن الحسن متصدّينَ للحجيج من الكوفة والبصرة إلى مكة خُفَاة ليضمن لهم مال إلى أن غلبهم الأصفر العقيلي على بعض ديارهم.

وكانت ولاية مصر وأعمالها للإخشيدية، انضمّ بعضُهم إلى ابن عُبَيْد الله الباطني الذي كان قد استولى على قيروان، ودخلوا مصر في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وابتنوا بها مدينة سَمَّوْهَا القاهرة يسكنها أهل بدعته، وأهل مصر ثابتون على السنة إلى يومنا، وإن أطاعوا صاحبَ القاهرة في أداء خراجهم إليه.

وكان أبو شُجَاع فَنَّاخُسْرُو بن بُوَيْه، قد تأهب لقَصْد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية، وكتب على أعلامه بالسواد: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين والطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وقال قصيدة أولها:

أمـا تَـرَى الأقْـدارَ لـي طَـوَائـعـا ... قـواضِـيًـا لـي بـالـعـيَـان كـالـخَـبَـرْ

ويَـشْـهَـدُ الأنـام لـي بـأنـني ... ذاك الـذي يُـرْجَـى وذَاك المُنْتَظَرْ

لـنُـصْـرَةِ الإسـلام والـداعـي إلـى ... خـلـيـفـة الـلـه الإمَـام الـمُـفْـتَـخَـرْ

فلما خرج إلى مَضَاربه للخروج إلى مصر غَافَصَهُ وفاجأه الأجلُ فمضى لسبيله، فلما قضى فنَاخُسْرو ونحبه طمع زعيمُ مصر في ملوك نواحى الشرق، فكاتبهم يَدعُوهم إلى البيعة له، فأجاب قابوس بن وشمكير عن كتابه بقوله: «إنى لا أذكرك إلّا على المستراح». وأجابه ناصر الدولة أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور بأن كتب على ظهر كتابه إليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة[1]. وأجابه نوح بن منصور والي خُرَاسان بقتل دُعَاته إلى بدْعَته. ودخل في دعوته بعضُ ولاة الجرجانية من أرض خوارزم، فكان دخولُه في دينه شؤْما عليه في ذهاب ملكه، وقتل أصحابه، ثم استولى يمين الدولة وأمين الملة محمود ابن سُبُكتكين على أرضهم، وقَتلَ مَنْ كان بها من دعاة الباطنية، وكان أبو على بن سيمجور قد وَافَقَهم في السر فَذَاقَ وَبَالَ أمره في ذلك، وقَبَضَ عليه والي خراسان نوح بن منصور، وبعث به إلى سبكتكين، فقتل بناحية غَزْنَةَ.

وكان أبو القاسم الحسن بن علي الملقب بدانشمند داعية أبي علي بن سيمجور إلى مذهب الباطنية، وظفر به بكتوزون صاحب جيش السامانية بنيسابور فقتله، ودفن في مكان لا يعرف.

وكان أمير الطوسي والي ناحية التاروذية قد دخل في دعوة الباطنية، فأسِر وحُمل إلى غَزْنَة وقتل بها في الليلة التي قتل فيها أبو علي بن سيمجور.

---

(1) سورة الكافرون.

وكان أهل مولتان من أرض الهند داخلين في دعوة الباطنية، فقصَدَهم محمودٌ رحمه الله في عسكره، وقتل منهم الألوف، وقطع أيدي ألف منهم، وباد بذلك نُصَراء الباطنية من تلك الناحية، ومن هذا بان شؤمُ الباطنية على منتحليها، فليعتبر بذلك المعتبرون.

وقد اختلف المتكلمون في بيان أغراض الباطنية في دعوتها إلى بدعتها.

فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة، واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول مَيْمُون ابن دَيْصَان كان مَجُوسِيًّا من سبي الأهواز، ودعا ابنُه عبد الله بن ميمون الناسَ إلى دين أبيه، واستدلّوا أيضًا بأن داعيهم المعروف النسفي[1] قال في كتابه المعروف بـ«المحصول»: «إن المُبْدِعَ الأول أبدع النفس، ثم إن الأول والثاني مُدَبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع»، وهذا في التحقيق معنى قول المجوس: «إن يَزْدَان خلق أهر من، وإنه مع أهر من مُدَبِّران للعالم، غير أن يزدان فاعل الخيرات، وأهر من فاعل الشرور».

ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحَرّان، واستدل على ذلك بأن حَمْدان قِرْمِط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرّانية، واستدل أيضًا بأن صابئة حَرّان يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم، والباطنية أيضًا لا يُظْهرون دينَهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم.

قال عبد القاهر: الذي يصحُّ عندي من دين الباطنية أنهم دُهْرية زَنَادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع.

والدليل على أنهم كما ذكرناه ما قرأته في كتابهم المترجم بـ «السياسة والبلاغ الأكيد، والناموس الأعظم» وهي رسالة عُبَيْد الله بن الحسين القَيْرَوَاني[2] إلى سليمان ابن الحسن بن سعيد الجَنّابَى[3]، أوْصَاه فيها بأن قال له: «ادْعُ الناس بأن تتقرَّبَ إليهم بما يَميلون إليه، وأوْهِمْ كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنَسْتَ منه رُشْدًا فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة مُعَوَّلُنا، وإنا وإياهم مُجْمِعُون على رد نَواميس الأنبياء، وعلى القول بِقِدَمِ العالم، لولا ما يخالفنا فيه بعضهُم من أن للعالم مُدَبرًا لا نعرفه».

وذكر في هذا الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب، وذكر فيها أن الجنة نعيمُ الدنيا، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد.

---

(1) إذا أراد القارئ معرفة دور النسفي في الحركة الباطنية، وما قام به من إسهامات دعمت حضورها على الصعيد الفكرى في إيران فإنى أسمح لنفسى بإحالته - إذا أراد - على كتابى «حركة الحشاشين: تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامى».

(2) مولده ووفاته (259 - 322هـ = 873 - 934م) في نسبه خلاف طويل، وهو مؤسس دولة العلويين بالمغرب، وجدّ العبيديين الفاطميين أصحاب مصر. وأحد الدهاة، وأخباره كثيرة. وكان يتولى أموره بنفسه، ليس له وزير ولا حاجب.

(3) سبقت له ترجمة.

وقال أيضًا في هذه الرسالة: «إن أهل الشرائع يَعْبُدون إلها لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم».

وقال فيها أيضًا: «أكْرِم الدُّهْرِيَّةَ فإنهم منا ونحن منهم»، وفي هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية، والذى يؤكد هذا أن المجوس يَدَّعُون نبوة زرادشت ونزول الوحي عليه من الله تعالى، وأن الصابئين يَدَّعون بنوة هرمس، ووالِيس، وذروثيوس، وأفلاطون[1]، وجماعة من الفلاسفة، وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مُقِرُّون بنزول الوحي من السماء على الذين أقروا بنبوتهم، ويقولون: إن ذلك الوحي شامل للأمر والنهي والخبر عن عاقبة بعد الموت، وعن ثواب وعقاب، وجنة ونار، يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة.

والباطنيةُ يرفضون المعجزت، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوَحْى والأمر والنهى، بل ينكرون أن يكون في السماء مَلَك، وإنما يتأولون الملائكة على دُعَاتهم إلى بدعتهم، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم، والأبالسة على مخالفيهم.

ويزعمون أن الأنبياء قوم أحَبُّوا الزعامة فساسُوا العامة بالنواميس والحيل طلبًا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة، وكل واحد منهم صاحب دور مسبع إذا انقضى دور سبعة تبعهم في دور آخر.

وإذا ذكروا النبيَّ والوحي قالوا: «إن النبي هو الناطق، والوحي أساسه الفاتق»، وإلى الفائق تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل إليه هواه، فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البَرَرَة، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة.

ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا؛ فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم، والحج زيارته وإدمان خدمته، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام، والزنى عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق وزعموا أن مَنْ عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها، وتأولوا في ذلك قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[2]، وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

وقد قال القيرواني في رسالته إلى سليمان بن الحسن: «إنى أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وبدَعْوَتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بَشَر كثير، فإن ذلك عَوْنٌ لك على القول بقدم العالم».

وفي هذا تحقيق دعوانا على الباطنية أنهم دُهْرِية يقولون بقدم العالم، ويجحدون الصانع، ويدل على دعوانا عليهم القولَ بإبطال الشرائع أن القيرواني قال أيضًا في رسالته إلى سليمان بن الحسن: «وينبغى أن تُحِيطَ علمًا بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم قال لليهود: لا

---

(1) في الأصل «أفلاطن» وهو خطأ. والصواب ما أثبتناه أعلاه.

(2) الحجر: 99.

أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى خلاف جهتها، ولهذا قتله اليهود لما اختلفت كلمته».

ثم قال له: «ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] لمَّا لم يعلم ولم يحْضُره جواب المسألة، ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد المحقق في زمانه عنده برهانًا قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾[2]، وقال لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]؛ لأنه كان صاحب الزمان في وقته».

ثم قال في آخر رسالته: «وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العَقْلَ، ثم يكون له أختٌ أو بنتٌ حَسْناء، وليست له زوجة في حسنها، فيحرِّمُهَا على نفسه ويُنْكِحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي، وما وَجْهُ ذلك إلا أن صاحبهم حَرَّم عليهم الطيبات، وخَوَّفهم بغائب لا يعقل، وهو الإلهُ الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبدًا من البَعْث من القبور والحساب والجنة والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلا، وجعلهم له حياته ولذريته بعد وفاته خَوَلًا[4]، واستباح بذلك أموالهم بقوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[5]، فكان أمره معهم نقدًا، وأمرهم معه نَسِيئة[6] وقد استعجل منهم بَذْلَ أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا مافيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج؟».

ثم قال لسليمان بن الحسن في هذه الرسالة: «وأنت وإخوانُك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس في هذه الدنيا، ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئًا لكم ما نِلتُم من الراحة عن أمرهم».

وفى هذا الذي ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية، واستباحة المحرمات، وترك العبادات.

ثم إن الباطنية لهم في اصطياد الأغتام[7] ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها: التفرس، والتأنيس، والتشكيك، والتعليق، والربط، والتدليس، والتأسيس، والمواثيق بالإيمان والعهود؛ وآخرها: الخلع، والسلخ.

فأما التفرس: فإنهم قالوا من شَرْط الداعى إلى بدعتهم أن يكون قويًا على التلبيس، وعارفًا بوجوه تأويل الظواهر ليردها إلى الباطن، ويكون مع ذلك مميزًا بين من يطمع فيه وفي إغوائه وبين من لا مَطْمَع فيه، ولهذا قالوا في وصاياهم للدعاة إلى بدعتهم: «لا تتكلموا في بيت فيه سراجٍ»، يَعْنُون

---

(1) الإسراء: 85.
(2) الشعراء: 29.
(3) النازعات: 24.
(4) الخَوَل: العبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم (للواحد والجمع والذكر والأنثى).
(5) الشورى: 23.
(6) النسيئة: يقال باعه بنسيئة: بتأخير.
(7) الأغتام: جمع أغتم وهو الذي لم يُفصح لعجمةٍ في منطقة.

بالسراج مَنْ يعرف علم الكلام ووجوه النظر والمقاييس، وقالوا أيضًا لدعاتهم: «لا تطرحوا بذركم في أرض سبخة»، وأرادوا بذلك مَنْعَ دعاتهم عن إظهار بدعتهم عند من لا تؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الأرض السبخة شيئًا، وسموا قلوب أتباعهم الأغتام أرضًا زاكية لأنها تقبل بدعتهم، وهذا المثل بالعكس أولى؛ وذلك أن القلوب الزاكية هي القابلة للدين القويم، والصراط المستقيم، وهي التي لا تَصْدَأ بشُبَه أهل الضلال، كالذهب الإبريز الذي لا يَصْدَأ في الماء، ولا يبلى في التراب، ولا ينقص في النار؛ والأرض السبخة كقلوب الباطنية وسائر الزنادقة الذين لا يَزْجُرُهم عقل، ولا يَرْدَعُهُم شرع، فهم أرْجَاسٌ أنجاس أمْوَاتٌ غير أحياء: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، قد قَسَم لهم الحظ في الرزق مَنْ قَسم رزق الخنازير في مراعيها، وأباح طعمة العنب في براريها: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2].

وقالوا أيضًا: من شرط الداعي إلى مذهبهم أن يكون عارفًا بالوجوه التي تُدْعَى بها الأصناف، فليست دعوة الأصناف من وجه واحد، بل لكل صنف من الناس وجه يُدْعَى منه إلى مذهب الباطن؟

فمن رآه الداعي مائلا إلى العبادات حمله على الزهد والعبادة، ثم سأل عن معاني العبادات وعِلَل الفرائض، وشَكّكه فيها.

ومَنْ رآه ذا مجون وخَلَاعة قال له: «العبادة بَلَه وحَمَاقة، وإنما الفطنة في نيل اللذات»، وتمثل له بقول الشاعر:

مَــنْ رَاقَــبَ الــنَّــاسَ مَــاتَ هَــمًّــا ... وَفَــــازَ بِـــالـــلَّـــذَّةِ الْـجَــسُــورُ

ومن رآه شاكا في دينه أو في المَعَاد والثواب والعقاب صَرَّح له بنفي ذلك، وحَمَله على استباحة المحرمات، واستروح معه إلى قول الشاعر الماجن:

أتْــــرُكُ لــــذة الـــصَّــهْــبَــاءِ صِــرْفًــا ... لــمــا وَعَــــــدُوهُ مــن لــحــم وَخــمْــرِ

حَــيَــــاة ثـــم مَـــــوْتٌ ثــم نَــشْــر ... حَــديــثُ خُــرَافَــةٍ يــا أمَّ عَــمْــرِو

ومن رآه من غلاة الرافضة: كالسَّبئية، والبيانية، والمغيرية، والمنصورية، والخَطّابية - لم يحتج معه إلى تأويل الآيات والأخبار؛ لأنهم يتأوَّلونها معهم على وَفْق ضلالتهم.

ومن رآه من الرافضة زيدِيًّا أو إماميا مائلا إلى الطعن في أخيَار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة، وزَيّن له بغض بني تَيْم لأن أبا بكر منهم، وبغض بني عَدِيّ لأن عمر بن الخطاب كان منهم، وحثَّه على بعض بني أمية لأنه كان منهم عثمان ومعاوية، وربما استروح الباطني في عصرنا هذا إلى قول إسماعيل بن عَبَّاد:

دخــــولُ الــنــارِ فــي حُــــبِّ الــوصــيِّ ... وفــــي تــفــضــيــل أولاد الــنــبــيِّ

أحَـــبُّ إلـــيَّ مـــن جــنَّـــاتِ عَـــدْن ... أخَــلَّـــدُهَـــا بِـــتَــيْــمٍ أو عَـــدِيٍّ

(1) الفرقان: 44.
(2) الأنبياء: 23.

قال عبد القاهر: قد أجبنا هذا القائل بقولنا فيه:

أتَطْمَعُ أنْتَ في جناتِ عدْنٍ | وأنت عَدُوُّ تَيْمٍ أو عَدِيِّ
وهم تركوك أشْقَى من ثمودٍ | وهم تركوك أفضح من دَعِيِّ
وفي نار الجحيم غدًا سَتَصْلَى | إذا عاداك صِدِّيقُ النبيِّ

ومَنْ رآه الداعي مائلا إلى أبي بكر وعمر مَدَحَهما عنده، وقال: «لهما حَظٌّ في تأويل الشريعة؛ ولهذا استصحب النبيُّ أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه في الغار تأويل شريعته». فإذا سأله المُوَالي لأبي بكر وعمر عن التأويل المذكور لأبي بكر وعمر أخذ عليه العهود والمواثيق في كتمان ما يظهره له، ثم ذكر له على التدريج بعضَ التأويلات، فإن قبلها منه أظهر الباقي، وإن لم يقبل منه التأويل الأول رَبَطه في الباقي وكتمه عنه، وشك الغِرُّ من أجل ذلك في أركان الشريعة.

والذين يَرُوجُ عليهم مذهبُ الباطنية أصناف:

أحدها: العامة الذين قَلَّتْ بصائرهم بأصول العلم والنظر؛ كالنبط، والأكراد، وأولاد المجوس.

والصنف الثاني: الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب، ويتمنون عَوْدُ المُلْك إلى العجم.

والصنف الثالث: أغنام بني ربيعة؛ من أجل غيظهم على مُضَر لخروج النبي منهم؛ ولهذا قال عبد الله بن حازم السلمي في خطبته بخراسان: «إن ربيعة لم تَزَلْ غِضَابًا على الله مذ بعث نبيه من مضر، ومن أجل حَسَد ربيعة لمضر بايَعَتْ بنو حنيفة مسيلمة الكذاب طمعًا في أن يكون في بني ربيعة نبيّ كما كان في بني مُضَرَ نبي». فإذا استأنس الأعجميُّ الغِرُّ أو الرَّبَعيُّ الحاسد المبغض يقول الباطني له: «قومُك أحَقُّ بالملك من مضر»، فيسأله عن السبب في عَوْد الملك إلى قومه، فإذا سأله عن ذلك قال له: «إن الشريعة المضرية لها نهاية، وقد دنا انقضاؤها، وبعد انقضائها يعود الملك إليكم»، ثم ذكر له تأويل إنكار شريعة الإسلام على التدريج، فإذا قَبِلَ ذلك منه صار ملحدًا صريحًا، واستثقل العبادات، واستطاب استحلال المحرمات.. فهذا بيان درجة التفرس منهم.

ودرجة التأنيس قريبة من درجة التفرس عندهم، وهي: تزيين ما عليه الإنسان من مذهبه في عينه، ثم سؤاله بعد ذلك عن تأويل ما هو عليه، وتشكيكه إياه في أصول دينه، فإذا سأله المدعُوُّ عن ذلك قال: «عِلْمُ ذلك عند الإمام»، ووصَل بذلك منه إلى درجة التشكيك، حتى صار المدعُوُّ إلى اعتقاد أن المراد بالظواهر والسنن غير مقتضاها في اللغة، وهَانَ عله بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات.

والربطُ عندهم: تعليقُ نفس المدعُوِّ بطلب تأويل أركان الشريعة، فإما أن يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها، وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها.

ودرجة التدليس منهم: قولهم للغر الجاهل بأصول النظر والاستدلال: «إن الظواهر عذاب، وباطنها فيه الرحمة»، وذكرله قوله في القرآن: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ

﴿ٱلْعَذَابُ﴾[1]. فإذا سألهم الغِرُّ عن تأويل باطن الباب قالوا: «جرت سنة الله تعالى في أخذ العهد والميثاق على رسله؛ ولذلك قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[2]. وذكروا له قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3]، فإذا حلف الغِرُّ لهم بالأيمان المغلظة وبالطلاقة والعتق وتسبيل الأموال فقد رَبَطوه بها، وذكروا له من تأويل الظواهر ما يؤدّي إلى رفعها بزعمهم، فإن قَبِلَ الأحمق ذلك منهم دخل في دين الزنادقة كتَمَها عليهم؛ لأنه حلف لهم على كتمان ما أظهروه له من أسرارهم، وإذا قبلها منهم فقد حلفوه وسلخوه عن دين الإسلام، وقالوا له حينئذ: «إن الظاهر كالقشر والباطن كاللُّبِّ، واللب خير من القشر».

قال عبد القاهر: حكى لي بعضُ من كان دخل في دعوة الباطنية، ثم وَفقه الله تعالى لرشده وهَدَاه إلى حلِّ أيمانهم: أنهم لما وثِقُوا منه بأيمانه قالوا له: «إن المسلمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحَبُّوا الزعامة على العامة، فخذعوهم بنيرنجات[4]، واستعبدوهم بشرائعهم».

قال هذا الحاكي لي: «ثم ناقض الذي كشف لي هذا السر بأن قال له: ينبغي أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشَّجَرَة فقال له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[5]، قال: قلت: سَخِنتْ عينُك تدعوني إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم ثم تدعوني مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسِلا لموسى؟ فإن كان موسى عندك ممخرقا فالذي زعمت أنه أرسله أكذبُ، فقال لي: إنك لا تفلح أبدًا، وندم على إفشاء أسراره إلي، وتُبْتُ من بدعتهم».

فهذا بيان وجه حيلهم على أتباعهم، وأما أيمانهم فإن داعيَهُمْ يقول للحالف: «جَعَلْتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله، وما أخذ الله تعالى على النبيين من عهد وميثاق، أنك تستر ما تسمعه مني، وما تعلمه من أمري، ومن أمر الإمام الذي هو صاحبُ زمانك، وأمر أشياعه وأتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان، وأمْرِ المطيعين له من الذكور والإناث، فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيرًا، ولا تظهر شيئًا يدلُّ عليه من كتابة أو إشارة إلا ما أذِنَ لك فيه الإمامُ صاحب الزمان، أو أذن لك في إظهاره المأذونُ له في دعوته، فتعمل في ذلك حينئذٍ بمقدار ما يؤذن لك فيه. وقد جعلْتَ على نفسك الوفاء بذلك، وألزمته نفسك في حالتي الرضا والغضب والرغبة والرهبة. قال: نعم، فإذا قال «نعم» قال له: وجعلت على نفسك أن تمنعني وجميعَ من أسَمِّيه لك مما تمنع منه نفسك بعهد الله وميثاقه عليك وذمته وذمة رُسُله، وتنصحهم نصحًا ظاهرًا وباطنًا، وألّا تَخُونَ الإمام وأولياءه وأهلَ دعوته في أنفسهم ولا في أموالهم، وأنك لا تتأول في هذه الأيمان تأويلًا، ولا تعتقد ما يحلُّها، وأنك إن فعلْتَ شيئًا من ذلك فأنت برىء من الله ورُسُله وملائكته ومن جميع ما أنزل الله تعالى من كتبه، وأنك إن خالفت في شيء مما ذكرناه لك فلله عليك أن

---

(1) الحديد: 13.
(2) الأحزاب: 7.
(3) النحل: 91.
(4) النيرنجات جمع نيرنج وهو أخذ كالسحر وليس به.
(5) طه: 12.

تحجّ إلى بيته مائة حجة ماشيًا نَذْرًا واجبًا، وكل ما تملكه في الوقت الذي أنت فيه صدقة على الفقراء والمساكين، وكل مملوك يكون في ملكك يوم تخالف فيه أو بعده يكون حرًّا، وكل امرأة لك الآن أو يومَ مخالفتك أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقًا منك ثلاث طلقات، والله تعالى الشاهدُ على نيتك وعَقْد ضميرك فيما حلفت به، فإذا قال «نعم» قال له: كفى بالله شهيدًا بيننا وبينك».

فإذا حلف الغِرُّ بهذه الأيمان ظنَّ أنه لا يمكن حلها، ولم يعلم الغِرُّ أنه ليس لأيمانهم عندهم مقدار ولا حرمة، وأنهم لا يرون فيها ولا في حلها إثما ولا كَفَّارة ولا عارًا ولا عقابًا في الآخرة.

وكيف يكون لليمين بالله وبكتبه ورسله عندهم حرمة، وهم لا يقرون بإلهٍ قديم، بل لا يقرون بحدوث العالم، ولا يثبتون كتابًا مُنْزَلًا من السماء، ولا رسولًا ينزل عليه الوحي من السماء؟ وكيف يكون لأيمان المسلمين عندهم حرمة، ومن دينهم أن الله الرحمن الرحيم إنما هو زعيمُهم الذي يدعون إليه، ومَنْ مال منهم إلى دين المجوس زعم أن الإله نورٌ بإزائه شيطان قد غلبه ونازعه في ملكه؟ وكيف يكون لنَذْر الحج والعمرة عندهم مقدار، وهم لا يرون للكعبة مقدارًا ويسخرون بمن يحج ويعتمر؟ وكيف يكون للطلاق عندهم حرمة وهم يستحلون كلَّ امرأة من غير عقد؟ فهذا بيان حكم الأيمان عندهم.

فأما حكم الأيمان عند المسلمين فإنا نقول: كلُّ يمين يحلف بها الحالفُ ابتداء بطَوْعِ نفسه فهو على نيته، وكل يمين يحلف بها عند قاض أو سلطان يحلّفه ينظر فيها: فإن كانت يمينا في دعوى لمدع شيئا على الحالف المُنكِر، وكان المدعِي ظالما للمدعَى عليه فيمين الحالف على نيته، وإن كان المدعِي محقا والمنكر ظالما للمدعى فيمين المُنكر على نية القاضي أو السلطان الذي أحلفه، ويكون الحالف حانثا في يمينه.

وإذا صحت هذه المقدمة، فالباحث عن دين الباطنية إذا قَصَد إظهار بدعتهم للناس، أو أراد النَّقْضَ عليهم، فهو معذور في يمينه وتكون يمينه على نيته، فإذا استثنى بقلبه مشيئَةَ الله تعالى فيها لم تنعقد عليه أيمانه، ولم يحنث فيها بإظهاره أسرارَ الباطنية للناس، ولم تطلق نساؤه، ولا تعتق مماليكه، ولا تلزمه صدقة بذلك، وليس زعيم الباطنية عند المسلمين إمامًا، ومَنْ أظهر سِرَّه لم يظهر سر إمام، وإنما أظهر سر كافر زنديق، وقد جاء في الحديث المأثور: «اذْكُرُوا الفَاسِقَ بما فِيهِ يحذره الناس». فهذا بيان حيلتهم على الأغمار بالأيمان.

فأما احتيالهم على الأغمار بالتشكيك: فمن جهة أنهم يسألونهم عن مسائل من أحكام الشريعة يوهمونهم فيها خلاف معانيها الظاهرة، وربما سألوهم عن مسائل في المحسوسات يوهمون أن فيها علوما لا يُحيطُ بها إلا زعيمُهم، فمن مسائلهم قول الداعي منهم للغِرِّ: «لم صار للإنسان أذنان ولسان واحد؟ ولم صار للرجل ذكر واحد وخصيتان؟ ولم صارت الأعصاب متصلةً بالدماغ، والأوردة متصلة بالكبد، والشرايين متصلة بالقلب؟ ولم صار الإنسان مخصوصًا بنَبَات الشعر على جَفنَيْه الأعلى والأسفل؟ وسائر الحيوان ينبت الشعر على جفنه الأعلى دون الأسفل، ولم صار ثديُ الإنسان على صدره، وثدي البهائم على بطونها؟ ولماذا لم يكن للفرس غُدَد، ولا كرش، ولا كعب؟ وما الفرق

بين الحيوان الذي يبيض والذى يلد ولا يبيض؟ وبماذا يميز بين السمكة النهرية والسمكة البحرية؟». ونحو هذا كثير يوهمون أن العلم بذلك عند زعيمهم.

ومن مسائلهم في القرآن سؤآلهم عن معاني حروف الهجاء في أوائل السور كقوله ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿طسٓ﴾ و ﴿ يسٓ ﴾ و ﴿طه ﴾ و ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وربما قالوا: «ما معنى كل حرف من حروف الهجاء؟ ولم صارت حروف الهجاء تسعة وعشرين حرفًا؟ ولم أعجم بعضها بالنقط وخلا بعضُها من النقط؟ ولم جاز وَصْلَ بعضها بما بعدها بحرف؟».

وربما قالوا للغِرّ: «ما معنى قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[1]؟ ولم جعل الله تعالى أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، وما معنى قوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[2] وما فائدة هذا العدد؟».

وربما سألوا عن آيات أوهموا فيها التناقض، وزعموا أنه لا يعرف تأويلها إلا زعيمهم، كقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[3]، مع قوله في موضع آخر: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4].

ومنها مسائلهم في أحكاما الفقه، كقولهم: «لم صارت صلاة الصبح ركعتين، والظهر أربعًا، والمغرب ثلاثًا؟ ولم صار في كل ركعة ركوع واحد وسجدتان؟ ولم كان الوضوء على أربعة والتيمم على عضوين؟ ولم وجب الغُسْل من المني وهو عند أكثر المسلمين طاهر؟ ولَمْ يجب الغسل من البول مع نجاسته عند الجميع؟ ولم أعادت الحائضْ ما تركت من الصيام ولم تُعِدْ ما تركت من الصلاة؟ ولم كانت العقوبة في السرقة بقطع اليد وفي الزنى بالجلد؟ وهلا قُطِع الفرجُ الذي به زنى في الزنى كما قطعت اليدُ التي بها سرق في السرقة».

فإذا سمع الغِرُّ منهم هذه الأسئلة، ورجع إليهم في تأويلها، قالوا له: «علمُهَا عند إمامنا وعند المأذون له في كشف أسرارنا»، فإذا تقرر عند الغرِّ أن إمامهم أو مادونه هو العالم بتأويله اعتقد أن المراد بظواهر القرآن والسنة غيرُ ظاهرها، فأخرجوه بهذه الحيلة عن العمل بأحكام الشريعة، فإذا اعتاد ترك العبادة واستحلَّ المحرمات كشفوا له القناع، وقالوا له: «لو كان لنا إلهٌ قديمٌ غنيٌّ عن كل شيء لم يكن له فائدة في ركوع العباد وسجودهم، ولا في طَوَافهم حول بيت من حجر، ولا في سَعْي بين جبلين، فإذا قبل منهم ذلك فقد انسلخ عن توحيد ربه، وصار جاحدًا له زنديقا.

قال عبد القاهر: والكلامُ عليهم في مسائلهم التي يسألون عنها عند قصدهم إلى تشكيك الأغمار في أصول الدين من وجهين:

أحدهما: أن يقال لهم: إنكم لا تَخْلُونَ من أحد أمرين: إما أن تُقِرُّوا بحدوث العالم وتثبتوا له صانعا قديما عالما حكيما يكون له تكليف عباده ما شاء كيف شاء، وإما أن تنكروا ذلك وتقولوا بقدم العالم ونَفْي الصانع. فإن اعتقدتم قدمَ العالم ونَفْيَ الصانع فلا معنى لقولكم: «لم فرض الله كذا،

---

(1) الحاقة : 17.
(2) المدثر: 30.
(3) الرحمن: 39.
(4) الحجر: 92.

ولم حرم كذا، ولم خلق كذا، ولم جعل كذا على مقدار كذا؟» إذا لم تقرُّوا بإلهٍ فرَضَ شيئًا أو حَرَّمه أو خلَق شيئًا أو قدَّره، ويصير الكلام بيننا وبينكم كالكلام بيننا وبين الدهرية في حدوث العالم. وإن أقررتم بحدوث العالم وتوحيد صانعه وأجَزْتُمْ له تكليف عباده ما شاء من الأعمال كان جواز ذلك جوابا لكم عن قولكم: «لم فرض؟ ولم حرم كذا؟»، لإقراركم بجواز ذلك منه إن أقررتم به وبجواز تكليفه. وكذلك سؤالهم عن خاصية المحسوسات يبطل إن أقروا بصانع أحْدَثَها، وإن أنكروا الصانع فلا معنى لقولهم: «لم خلق الله ذلك؟» مع إنكارهم أن يكون لذك صانع قديم.

والوجه الثاني من الكلام عليهم فيما سألوا عنه من عجائب خَلْقِ الحيوان:

أن يقال لهم: كيف يكون زعماء الباطنية مخصوصين بمعرفة علل ذلك، وقد ذكرته الأطباء والفلاسفة في كتبهم، وصَنَّفَ أرسطاطاليس[1] في طبائع الحيوان كتابا[2]؟ وما ذكرت الفلاسفة من هذا النوع شيئًا إلا مسروقًا من حكماء العرب الذين كانوا قبل زمان الفلاسفة، من العرب القَحْطَانية، والجُرْهُمِيَّة، والطَّسْمِية، وسائر الأصناف الحميرية. وقد ذكر العربُ في أشعارها وأمثالها جميعَ طبائع الحيوان، ولم يكن في زمانها باطنيٌّ ولا زعيم للباطنية، وإنما أخذ أرسطاطاليس الفرق بين مايلد وما يبيض من قول العرب في أمثالها: كل شَرْقاء ولود، وكل صَكَّاء بَيُوض. ولهذا كان الخفاش من الطير ولودًا لا بيوضًا، لأن لها أذنا شرقاء، وكل ذات أذن صكاء بَيُوض: كالحية والضب والطيور البائضة.

وذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنى، وعبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي: أن العرب قالت بتجريبها في الجاهلية: «إن كل حيوان لعينيه أهدابٌ على الجفن الأعلى دون الأسفل إلا الإنسان فإن أهدابه على الجفن الأعلى والأسفل».

وقالوا: «كل حيوان ألقي في الماء يسبح فيه إلا الإنسان، والقرد، والفرس الأعسر، فإنه يغرق فيه، إلا أن يتعلم الإنسان السباحة».

وقالوا في الإنسان: «إنه إذا قُطِع رأسُه وألقى في الماء انتصب قائما في وسط الماء».

---

(1) أرسطو طاليس: (384 - 322 ق.م) فيلسوف يونانى كبير، له أثره الواضح في تطور الفكر الإنسانى، من مؤلفاته «النفس»، و «الحيوان»، و «السياسة» و «الشعر»، و «ما بعد الطبيعة»، و «الأخلاق النيقوماخية». كان ابنا لطبيب بأسطاغيرا في شمال اليونان، ظل لعشرين عاما بادئا من 367 عضوا بأكاديمة أفلاطون، ولما توفي أفلاطون وأصبح سبويسيبس رئيسًا للأكاديمية، ذهب إلى أسوس على شاطئ آسيا الصغرى، ثم إلى ليسبوس. وحوالى 342 دعاه فيليب ملك مقدونيا ليذهب إلى مملكته ليشرف على تعليم الإسكندر الأكبر ابن الملك. وبعد أعوام قليلة عاد أرسطو إلى أثينا ليؤسس مدرسة جديدة أصبحت تعرف باسم «اللوقيون» أو «بريباتوس»، (الممشى). وازدهرت المدرسة، لكن أرسطو غادر أثينا في 323 ق.م لأسباب سياسية واعتزل في أوربا حيث توفي سنة 322 ق.م.).

(2) لأرسطو في علم الحيوان كتب عديدة، هي «تاريخ الحيوان»، و «أجزاء الحيوان»، و «حركة الحيوان»، و«توالد الحيوان». ولقد جمع أرسطو في كتبه هذه مقدارا هائلًا من المعلومات عن الكائنات الحية. وكان بالرغم من بعض الأخطاء الأساسية التي وقع فيها، على دراية بموضوع بحثه تفوق دراية كثير من الذين جاءوا بعده إلى مطلع العصور الحديثة نسبيًا؛ فلقد أدرك أرسطو أن النظريات لابد أن تعتمد على الوقائع، وهو يقول بعد أن يقدم نظرية عن توالد النحل: «إننا لم نتثبت من الوقائع بما فيه الكفاية»، وإذا حدث في أي وقت من المستقبل أن تثبتنا منها «فعلينا أن نمنح ثقتنا لشهادة الحواس المباشرة أكثر مما نمنحها للنظريات». وتُعدّ تصنيفاته المنسقة للحياة الحيوانية وتفريقه بين الفئات الرئيسية في عالم المخلوقات من الإضافات الهامة التي أسهم بها في ميدان علم الحياة.

وقالوا: «كل طائر كفه في رجليه، وكف الإنسان والقرد في اليد، وكل ذي أربع ركبته في يده، وركبتا الإنسان في رجليه».

وقالوا: ليس للفرس غُدَد ولا كرش ولا طحال ولا كعب، وليس للبعير مَرَارة، وليس للظليم[1] مخ، وكذلك طير الماء وحيتان البحر ليس لها ألْسُن ولا أدمغة، وقد يكون حوتُ النهر ذا لسان ودماغ».

وقالوا: «إن السموك كلها لا رئه لها كذلك ولا تتنفس».

وقالت العرب من تجاربها: «إن الضأن تضع في السنة مرة وتفرد ولا تُتئِم، والماعز تضع في السنة مرتين، وتضع الواحدة، والاثنتين، والثلاثة، والعدد و النماء والبركة في الضأن أكثر منها في الماعز».

وقالوا أيضًا: «إذا رعت الضأن نبتًا نبت، ولا ينبت ما يأكله الماعز؛ لأن الضأن تقرضه بأسنانها والماعز تقلعه من أصله».

وقالوا: «إن الماعز إذا حملت أنزلت اللبن في أول الحمل إلى الضرع، والضأن لا تنزل اللبن إلا عند الولادة».

وقالوا: «إن أصوات الذكور من كل جنس أجْهَرُ من أصوات الإناث إلا المعْزَى فإن أصوات إناثها أجْهَرُ من أصوات ذكورها».

ومن أمثال العرب في الحيوان قولهم: كلُّ ثَوْر أفْطَس[2]، وكل بعير أعْلَم[3]، وكل ذي ناب أفرج.

وقالوا بالتجربة: «إن الأسد لا يأكل شيئا حامضا، ولا يدنو من النار، ولا يدنو من الحامل».

وقالوا: «إن حَمْلَ الكلب ستون يوما، فإن وضعت حملها لأقل من ذلك لم تكد أولادها تعيش».

وقالوا: «إن إناث الكلاب يَحِضْنَ لسبعة أشهر، ثم إن الكلبة تحيض في كل سبعة أيام، وعلامة حيضها وَرَمُ أثفارها».

وقالوا في الكلب: «إنه يلقى من أسنانه شيئًا إلا الثامن».

وقالوا في الذئب: «إنه يَنَامُ بإحْدَى عينيه ويحترس بالأخرى، ولذلك قال فيه حُمَيْد ابن ثور:

يَـنَـامُ بـإحْـدَى مُـقْـلَـتَـيْـهِ، وَيَـتَّـقِـي ... بـأحْـرَى الْـمَـنَـايَـا؛ فَـهْـوَ يَـقْـظَـانُ نَائِمُ

والأرنَب تَنَامُ مفتوحة العينين».

قالوا: «ليس في الحيوان ما لسانُه مقلوبٌ إلا الفيل، وليس في ذوات الأربع ما ثَدْيُه على صدره إلا الفيل».

وقالوا: «إن الفيل تضع لسبع سنين، والحمار لسنة، والبقرة في ذلك كالمرأة».

وقالوا في قضيب الأرنب والثعلب «إنه عَظْم».

---

(1) الظَّليم: ذكر النعام، والجمع ظُلْمان.

(2) الأفْطَس: الذي انخفضت قصبة أنفه.

(3) الأعلم: الذي انشقت شفته العليا.

وقالوا: «كل ذي رجلين إذا انكسرت إحداهما قام على الأخرى وعَرِجَ إلا الظليم، فإنه إذا انكسرت إحدى رجليه جَثَم في مكانه»، ولهذا قال الشاعر في نفسه وأخيه:

فَــإنّــي وإيَّــــاهُ كــرِجْــلَــيْ نَـعَـامَـةٍ ... عَلَى مَابنَا من ذِى غِنىً أَوْ لَـدَى فَقْرِ

يريد أنه لا غِنَى لأحدهما عن صاحبه.

وقالوا في النعامة: «إنها تبيض من ثلاثين بيضة إلى أربعين، لكنها تخرج ثلاثين منها تحضن عليها كخيط ممدود على الاستواء، وربما تركت بَيْضها وَحَضنَتْ بيضَ غيرها»، ولهذا قال فيها ابن هَرْمَة:

كَــتــارِكَــةٍ بَــيْـضَـهَـا بِــالْــعَــرَاءِ ... وَمُـلْـبِـسَـةٍ بَـيْـض أخْــرَى جَـنَـاحَـا

وقالوا في الفرخ والفروج: «إنهما يُخْلَقان من البياض، والصُّفْرة غذاؤهما».

وقالوا في القَطَا: «إنها لا تَضَعُ إلا فردا»، وفي العُقَاب: «إنها تضع ثلاث بيضات، فتخرج بيضتين وتطرح واحدة، فيخرجها الطير المعروف بكاسى العظام»؛ ولهذا قيل في المثل: «أبرُّ من كَاسِي العظام».

وقالوا في الضب: «إنها تضع سبعين بيضة، ولكنها تأكل ما خَرَجَ من الحُسُولَة عن البيض إلا الحِسْل [1] الذي يَعْدُو ويهرب منها»، ولهذا قالوا في المثل: «أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ»، ولاضب لا يرد الماء، ولهذا قالوا في المثل: «أَرْوَى مِنْ ضَبٍّ»، وقالوا في الضب: «إنه ذكرين، وللأنثى من الضِّبَاب فرجان من قبل».

وقالوا في الحية: «لها لسانان، ولسانُهَا أسود على اختلاف ألوان قشرها، والحيات كلها تكره ريح السَّذَاب والبنفسج، وتعجب بريح التفاح، وبالبطيخ، والجزر، والخردل، واللبن، والخمر».

وقالوا في الضفادع: «إنها لا تصيح إلا وفي أفواهها الماء، ولا تصيح في دِجْلَةَ بحال، وإن صاحت في الفُرَات وسائر الأنهار»، وقال الشاعر في الضِّفْدَع:

يُــدْخِــلُ فِــى الأشْــــدَاقِ مَـا يُـنَـقْـقُـه ... حَــتَّــى يَــنِــقَّ والــنـقـيـقُ يُـلْـفِـتُـهْ

يعنى أن نقيقها يدل عليها الحية فتصيدها فتأكها.

وقالوا: «إن الضفادع لا عظام لها».

وقالوا في الجُعَلِ [2]: «إنه إذا دُفِنَ في الوَرْد سكن كالميت، فإذا أعيد إلى الرَّوْثِ تحرك».

فهذا وما جَرَى مَجْراه من خَوَاصِّ الحيوانات وغيرها قد عرفته العربُ في جاهليتها بالتجارب، من غير رجوع منها إلى زعماء الباطنية، بل عَرفُوها قبلَ وجودِ الباطنية في الدنيا بأحقاب كثيرة، وفي هذا بيانُ كذبِ الباطنية، في دَعْوَاها أن زُعَمَاءها مخصوصون بمعرفة أسرار الأشياء وخواصها، وقد بَيَّنَّا خروجَهُم عن جميع فِرَقِ الإسلام بما فيه كفاية، والحمد لله على ذلك.

---

(1) الحِسْل: ولد الضب حين يخرج من بيضته. والجمع: أحسل، وحسول وحسلة، وحسلان ويقال: لا آتيك سِنَّ الحمل أبدًا لأن سنّه لا تسقط حتى يموت].

(2) الجُعَلَ: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. والجمع: جِعْلان.